المحاضرة الرابعة : الشعر في صدر الإسلام * شعر الفتوحات * **د. طارق زيناي**

عناصر المحاضرة : [أثر الإسلام في الشعر، شعر الفتوحات، شعراء الفتوحات، مفهوم شعر الفتوحات الإسلامية، موضوعات شعر الفتوحات، الخصائص الفنية لشعر الفتوحات]

تمهيد :

يقصد بصدر الإسلام –كما أسلفنا في المحاضرة الأولى – الفترة الزمنية، من بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سنة 611م، إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين سنة 40 هـ، والتي انتهت باستشهاد علي رضي الله عنه، ولا شك أن الإسلام شكل بظهوره ثورة على جميع مناحي الحياة العربية آنذاك، فقد وحَّد العرب تحت دولة واحدة استطاعت أن تقهر أعظم أمبرطوريتين (الفرس والروم)، وقضى على العادات والتقاليد والعقائد والسلوكات الفاسدة؛ التي كانت عند العرب في الجاهلية، وقد كان للجانب الأدبي نصيب غير منقوص من هذا التأثير الإسلامي، إن على مستوى الأساليب، أو على مستوى المضامين الإسلامية، أو على مستوى الموضوعات الجديدة المستحدثة، كشعر المغازي والفتوح، وستحاول هذه المحاضرة قراءة المشهد الشعري في هذا العصر من خلال شعر الفتوحات الإسلامية، وذلك بالإجابة عن الإسئلة التالية : ما أثر الإسلام في الشعر؟ وما مفهوم شعر الفتوحات ؟ وما هي موضوعات هذا الشعر؟ وما هي خصائصه الفنية ؟

أثر الإسلام في الشعر :

مما لا شك فيه أن الإسلام كما يقول يحي الجبوري : « كان حدثا هزَّ النفوس، وأثر في نظم القوم، ومظاهر الحياة، وقد كان الشعر من تلك المظاهر التي تأثرت بالإسلام، تأثيرا واضحا بارزا، من حيث الشكل والمعنى، ومن حيث اتجاهات الشعر وموضوعاته » [1]، فالمتتبع لحركة الشعر في صدر الإسلام يلحظ بوضوح التأثيرات الكثيرة التي أحدثتها الدعوة الجديدة في الجوانب الفنية، فضلا عن المضامين الفكرية والمعرفية، ويظهر ذلك جليا في القسم والدعاء والقصص، أما فيما يخصُّ الأساليب فيظهر في طريقة « بناء القصيدة وصورها وأخيلتها، وفي ثقافة الشاعر التي كان يودعها أشعاره، وفي ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، حيث كان الشعراء يغترفون من القرآن الكريم والحديث الشريف، نصا أو روحا، فصدروا عنهما صدور الشذا الفواح عن الأزهار العطرة » [2]، وفيما يأتي سنحاول أن نتطرق لبعض مواطن تأثير الإسلام في شعر صدر الإسلام :

---

[1] – شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، ط01، 1964، ص 39.

[2] – سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1996، ص 174.

القسم :

وهو من الأساليب، الذي كان حاضراً في الشعر الجاهلي، ولكنه كان ينطلق من خلفية شركية، لكن في الشعر الإسلامي اكتسى ثوبا توحيديًا، بحيث استعمله الشعراء في قصائدهم، استنادا إلى المفاهيم الإسلامية، كالذي نراه مثلا عند أبي صخر الهذلي [1]:

أَمَا وَالذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ، وَالذِي	أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَالذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ

فالشاعر كما هو ملاحظ قد تأثر بقوله تعالى : ((وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)) [النجم : 43 – 44]. والشواهد في هذا كثيرة لا تحصى.

الدعاء :

يعدُّ الدعاء من بين الأساليب الجديدة التي تفنن الشعراء في توظيفها، كابتهال واستغفار وثناء لله تعالى، وسؤال الله المغفرة والرحمة، وطلب التوبة، ومنه قول عمرو بن الجموح [2] :

أَتُوبُ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ	وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ نَارِهِ
وَأُثْنِي عَلَيْهِ بِآلَائِهِ	بِإِعْلَانِ قَلْبِي وَإِسْرَارِهِ

القصص :

استطاع شعراء صدر الإسلام استيعاب القصص القرآني فوظفوه في أشعارهم، توظيفا بارعا يقوم على التلميح والإشارة، يفهمه السامع ويدرك مقصد صاحبه منه، ومن ذلك قول ربيعة بن ليث المعروف بالمبرق يهجو قريشا لجحودها حق الله تعالى عليها، مشبها أياها في جحودها بعاد ومدين والحجر [3] :

وَتِلْكُمْ قُرَيْشٌ تَجْحَدُ اللهَ رَبَّهَا	كَمَا جَحَدَتْ عَادٌ وَمَدْيَنَ وَالحِجْر

التكرار :

وهو أسلوب قرآني، وسمة بارزة فيه، ولهذا تأثر به الشعراء واعتمدوه من أجل التقرير والتأكيد والإقناع، من ذلك قول الفضل بن العباس يخاطب المشركين في فتوح الشام [4]:

اقِرُّوا بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ	وَإِلَّا تَرَوْا أَمْرًا عَظِيمًا مُدَانِيَا

[1] – أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1926،02، ص 149.

[2] – أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج04، تح : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط01، 1415هـ، ص 508.

[3] – المصدر نفسه، ج02، ص 396.

[4] – أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1997، ص235.

اقرُّوا بَأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ أَحْمَدًا	نَبِيًّا كَرِيمًا لِلْخَلَائِقِ هَادِيَا

الاقتباس :

ليس بغريب أن يتبع الشعراء في صدر الإسلام أسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي وأن يستلهموا نصوصهما، لأنهما يمثلان لهم اللغة العليا، القرآن أولا ثم الحديث ثانيا، بحيث أنه كلما اقترب الشاعر منهما كلما اقترب من الفصاحة والبلاغة والبيان، ولعله ليس من السهل أن نتناول الشواهد الشعرية التي اقتبس فيها أصحابها واستوحوا نصوص القرآن والسنة، وحسبنا من ذلك قول عبد الله بن رواحة يصف عبادة النبي صلى الله عليه وسلم [1]:

بِبيت يُجَافِي جَنْبَه عَنْ فِرَاشِه	إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

فقد اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى : ((تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ))[السجدة : 16]

الأفكار :

كما أثر الإسلام في العناصر الفنية السابقة فقد امتد تأثيره للجوانب الفكرية، فقد استوعب النص الشعري في عصر صدر الإسلام كثيرا من الأفكار والمفاهيم ووظفوها في شعرهم، فتراءت لنا هذه النصوص حاملة مضامين توحيدية وأخلاقية دعا إليها القرآن الكريم والحديث الشريف، فرأينا الحديث عن وجوب توحيد الحاكمية لله، والإيمان بالقضاء والقدر، وحتمية الموت على الإنسان، ووجوب البعث والنشور، والحديث عن الحساب والجنة والنار...

ومع كل ما سبق فقد وصل تأثير الإسلام، سواء عند الشعراء المخضرمين أو الإسلاميين، كثيرا من المناحي الفنية الأخرى « سواء من ناحية بناء القصيدة وتقاليدها، أو الصور والأخيلة، أو الألفاظ والتراكيب والمعاني» [2]

شعر الفتوحات :

لاشك أن الإسلام قد أولى الأهمية البالغة للجهاد وجعله فريضة على المستطيعين، لا تسقط بأي حال من الأحوال، إذا اقتضى الأمر، سواء في حالة الدفع أو الطلب، حتى يتحقق مقصد العبودية الكاملة لله دون سواه، وأن تكون كلمته هي العليا، وقد جاء في فريضة الجهاد آيات كثيرة منها قوله تعالى : ((فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً))[النساء : 74]، وقوله : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)) [التوبة : 73]، وقوله أيضا : ((إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ)) [التوبة : 111]، وقوله : ((قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ

[1] – الديوان، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ط01، 1981، ص162.

[2] – سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سبق ذكره، ص 199.

فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) [التوبة : 24]، وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته شاهدة على ما يحتله الجهاد في سبيل الله في قلوبهم، لما يحققه من أهداف سامية، والملاحظ أنَّ الشعر لم يكن بعيدا عن دائرة الجهاد، بل إنه وجه من أوجه الجهاد، التي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته في جهاده ومعاركه ضد كفار قريش « حتى إنه يمكن القول إنَّ تلك المعارك ساعدت على تنشيط الشعر في تلك الفترة، وهذا ما نلاحظه جليا في شعر الشعراء المخضرمين » [1]، فقد مضى الشعر – في مضامير الجهاد – يسجل كل صغيرة وكبيرة متعلقة بالمجاهدين؛ من تخليد لذكراهم، ووصف معاركهم، وتعبئة الروح المعنوية في نفوسهم، وهجاء الخصوم، ورثاء الشهداء...

وقبل التطرق لشعر الفتوحات، لابد من الإشارة إلى قضية طرحت قديما، ولا زالت تُناقش وتُثرى حتى وقتنا هذا، وهي قضية ضعف الشعر ولينه بمجيء الإسلام وأسباب ذلك بين الإقرار والإنكار، ويرجع أصل القول بهذا الرأي ما أُثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « كَانَ الشعر علم قوم لم يكن لَهم علم أصح منه فِي الإِسلَام » [2]، ثم ما عقب به ابن سلام في قوله : « فجَاء الْإِسلَام فتشاغلت عَنهُ العرب بالجهادِ ولهت عَن الشعر وروايته » [3]، ثم جاء ابن خلدون ورأى أنَّ سبب ضعف الشعر يرجع إلى علة أخرى وهي انبهار العرب بالقرآن الكريم وانشغالهم به عن قول الشعر، فيقول : « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره و سمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه » [4]

من القولين السابقين يتبين أن الشعر يرجع سبب لينه وضعفه – على رأي ابن سلام وابن خلدون – للفتوحات والغزوات الإسلامية؛ التي لم تتح المجال للعرب أن تنشغل بأمر هامشي مثل الشعر، إذا ما قيس بأمر الجهاد ونشر الإسلام، هذا من جهة ومن جهة ثانية يرجع لمعجزة القرآن وفصاحته وبلاغته وبيانه التي أخرست العرب على قول الشعر الذي كانوا يرون فيه أنه القول الكامل والحجة البالغة، فلم يتجرؤوا بعده على قول الشعر، فكأنهم أُصيبوا أمام الإعجاز القرآني بما يمكن تسميته بـ ((الصدمة الفنية))، وهناك سبب آخر يرجع لانزواء الشعراء وتركهم قول الشعر تحرُّجا، لما جاء في القرآن وفي السنة النبوية ما يفهم منه النهي عن قول الشعر « وبخاصة أولئك الذين ملأ الإيمان قلوبهم، فهم يخشون أن يكونوا من الشعراء الذين عناهم القرآن في قوله : ((وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ

---

[1] – واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 1994، ص 120.

[2] – محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج01، قرأه وشرحه : محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ص24.

[3] – المرجع نفسه، ص 25.

[4] – ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، تح : عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، ط01، 2004، ص413.

أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(226))) [سورة الشعراء : الآية : 224 – 226] » [1]، ويفسر هذا الأمر إحجام بعض الشعراء عن قول الشعر، ومنهم شاعر فحل من أصحاب المعلقات، وهو لبيد بن ربيعة عن قول الشعر، الذي صرح أنَّ الله أبدله خيرا من الشعر سورة البقرة وآل عمران، ومنهم الأعرج الطائي (عدي بن عمرو بن سُويد)، الذي قال أبياتا تلخص فكرة التخلي عن الشعر لأولئك الذين آمنوا بالله وبهرهم القرآن الكريم، ومنها [2]:

تَرَكْتُ الشِّعْرَ وَاسْتَبْدَلْتُ مِنْهُ	إِذَا دَاعِي مُنَادِي الصُّبْحِ قَامَا
كتابَ اللهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ	وَوَدَّعْتُ المُدَامَةَ وَالنَّدَامَى
وَحَرَّمْتُ الخُمُورَ وَقَدْ أَرَانِي	بِهَا سَدِكاً وَإِنْ كَانَتْ حَرَامَا

وهناك سبب رابع يرجع إلى أن الشعر يقوى في باب الشر ويضعف ويلين في باب الخير، والإسلام إنما جاء لتربية النفوس وتزكيتها، والعرب في شعرها تنحو منحى آخر – نهى عنه الإسلام – كالتغني بوصف الخمر، والغزل الفاحش، والمدح الباطل، والفخر الكاذب، والهجاء المقذع، بل إن عمر بن الخطاب قد استبدل ما كان يلقاه الشعراء من تبجيل وتكريم وعطاء من الملوك والأمراء بالحزم والزجر وعدم قول الشعر فيما لا ينفع، فقد كان يكره التقول في الشعر والكذب فيه (فكان يعجبه زهير لأنه لا يقول في الرجل إلا ما فيه)، وكان يعاقب على الهجاء المقذع (ولهذا سجن الحطيئة بسبب لسانه)، ولهذا يقال إن شعر حسان بن ثابت في الإسلام، يختلف عنه في الجاهلية من حيث الجودة وحسن السبك لهذا السبب، يقول الأصمعي مقررا هذه الفكرة : « طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان؛ ألا ترى أنّ حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير– من مراثي النبي صلّى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم– لان شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة، من صفات الديار والرَّحْل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الحُمُر والخيل والحروب والافتخار؛ فإذا أدخلته فى باب الخير لان » [3]، المتأمل للأسباب السابقة يرى أنها صحيحة نسبيا، فشعر شعراء عصر صدر الإسلام إذا ما قُورن بالعصر الجاهلي لاشك أن في لينا وضعفا، ولكن هناك رأي آخر يصوب الاستشهادات السابقة، ويرى فيها أنها لا تدل بنفسها على ضعف الشعر ولينه، ولهم في ذلك أدلة كثيرة أيضا [4]، لعل منها أن الإسلام لم يقف موقف المعادي للأغراض الشعرية كلها بل وجهها الوجهة الصحيحة التي تتفق ومبادائه وتعليماته، « إذ حاول أن ينفي عنها طوابعها التي لا تتلاءم مع الدعوة الإسلامية، ثم يدفعها للانسياق في إيحاءات الحياة الإسلامية

[1] – محمد خضر، أدب صدر الإسلام ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1981، ص 158.

[2] – أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، ج01، مصدر سبق ذكره، ص205.

[3] – أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح : محمد حسين شمس الدين، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1995،ص78.

[4] – يُنظر لمن أراد التفصيل : سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سبق ذكره ، ص 15– 21.

ومتطلباتها، في نطاق من تعاليم الدين الجديد » [1]، حتى إنه اتخذه سلاحا من أسلحته في معركته ضد الكفر، ولعل هذا الأمر كفيل بأن يجعله ينمو ويزدهر، وهناك سبب آخر يرجح احتفاظ الشعر بقوته، هو أنَّ الذي وصلنا من الشعر في هذه الفترة قليلٌ؛ بحكم الأحداث الكبرى التي مرَّت بها الأمة الإسلامية، بدءا بالحروب الكثيرة بين المسلمين وقريش وغيرهم من الكفار خاصة في الفتوحات، وأيضا حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق، الأمر الذي جعل الكثير منها يضيع وينطمسُ، بل ومنه ما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن روايته كشعر المشركين في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والتعريض به وبأزواجه وأصحابه، كشعر عبد الله بن الزبعرى وأمية بن أبي الصلت، بل إن حتى قريش – بعد إسلام أهلها – ما كان لها أن تروي شعرا قيل في جاهليتها، « فالشعر الذي كان مفخرة عصبيتها بالأمس، أصبح اليوم سبة وعارا تتوارى منه، وتعمل على دفعه والتخلص منه » [2] فمن الطبيعي أن يتأثر الشعر للأسباب السابقة.

بعد هذه المقدمة الممهدة لظهور شعر الفتوحات والجهاد، لابد من الإقرار أنَّ هذا الشعر لكثرته وتشعب مسالكه، نجد أنفسنا عاجزين على الإلمام بكل تجلياته وطوابعه.

مفهوم شعر الفتوحات الإسلامية :

لا يمكننا الحديث عن مفهوم شعر الفتوحات إلا من خلال ربطه بمفهوم الجهاد، لأن هذا الأخير ينقسم إلى جهاد دفع؛ وهو عندما تكون الأمة الإسلامية محتلة أو أنها على وشك أن تحتلَّ، فينفر المسلمون إذ ذاك للدفاع عن حمى الدين والوطن، أما جهاد الطلب، فهو المرادف لمصطلح الفتح، والبعض يسميه الغزو، وإن كان المصطلح الثاني – مع وروده في كتب السير والتاريخ – إلا أنه يجد تحفظات من بعض الدارسين لما يمكن أن يفهم منه أن المسلمين غزاة، يأخذون ما ليس لهم بالقوة وبالسلاح، إذن فمفهوم شعر الفتوحات الإسلامية هو ما قاله الفاتحون وهم بصدد الذهاب للجهاد، أو ما قيل في الجهاد أو بعده، من شعر أو رجز يتناول كل ما يتعلق بالفتح من تعبير عن الأحاسيس، والحنين إلى الديار، ووصف ما يرونه من مشاهد وقلاع وقصور وحيوانات وغيرها، وما يتخلل ذلك من الدعوة إلى الجهاد، وتصوير المعارك والإشادة بالإبطال وتأبين ورثاء الشهداء، والفخر بالمجاهدين في ساحات القتال، وهجاء المشركين وغير ذلك من المواضيع ذات الصبغة التقليدية أو المطورة أو المستحدثة.

ولعلَّ مما يمكن أن يحسب على شعر الفتح الجهاد من خلال التحديدات المفهومية السابقة ما يلي :

* ما يقوله الرجل في وصف تخلفه عن اللحاق بالمسلمين في ساحات الوغى لعذر به كالمرض والكبر، ومن ذلك ما قاله البُرَيْق الهذلي، ذاكرا ما يعتصره من ألم جراء تخلفه، مشبها نفسه بالجدي العاجز المربوط، فلا يستطيع حراكا، مع رغبته في التحرك، فيقول [3] :

---

[1] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط01، 1426هـ-2005م، ص 157.

[2] – محمد خضر، أدب صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 161.

[3] – ديوان الهذليين، ج03، الدر القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1965، ص58- 59.

فَإِنْ أُمْسِ شَيْخاً بِالرَّجِيعِ وَوِلْدَةً	وَتُصْبِحُ قَومِي دُونَ دَارِهِمُ مِصْرُ
أُسَائِلُ عَنْهُمْ كُلَّمَا جَاءَ رَاكِبٌ	مُقِيمًا بِأَمْلَاحٍ، كَمَا رُبِطَ اليَعْرُ

* الشعر الذي يصور جزع الآباء على أبنائهم المشاركين بالجهاد كشعر المخبَّل الربيع السعدي، الذي جزع على ابنه شيبان، الذي كان في غزوة مع سعد بن أبي وقاص، وقد كان أبوه قد أسنَّ وضعف، فقال يتحسر على غيابه عنه [1] :

أَيُهْلِكُنِي شَيْبَانُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ	لِقَلْبِي مِنْ خَوْفِ الفِرَاقِ وَجِيبُ
وَيُخْبِرُنِي شَيْبَانُ أَنْ لَمْ يَعُقَّنِي	تَعُقُّ إِذَا فَارَقْتَنِي وَتَحُوبُ
فَإِنْ يَكُ غُصْنِي أَصْبَحَ اليَوْمَ بَالِيًا	وَغُصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ
فَإِنْ حَنَتْ ظَهْرِي خُطُوبٌ تَتَابَعَتْ	فَمَشْيِي ضَعِيفٌ فِي الرِّجَالِ دَبِيبُ
إِذَا قَالَ صَحْبِي يَا رَبِيعُ أَلَا تَرَى	أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَينِ وَهْوَ قَرِيبُ
أَشَيْبَانُ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ كُلَّ لَيْلَةٍ	غَبَقْتُكَ فِيهَا وَالغَبُوقُ حَبِيبُ

فبكى عمر – لما سمع هذا الشعر – رقة له، وكتب إلى سعد أن يقفله، فانصرف شيبان إلى أبيه، فكان معه حتى مات.

* ومنها الشعر الذي يقف فيه الابن المنطلق للجهاد حائرا بين الواجب تجاه دينه، والواجب تجاه والديه العجوزين الخائفين عليه، ولكنه يفضل الآخرة على الدنيا، فينطلق ملبيا نداء الله، بحيث يتغلب نداء الإيمان على عاطفة الإشفاق، وشاهد هذا المعنى ما قاله الحتَّات مجيبا أباه ذريحا؛ حيث فرق وجزع على فراق ابنه، واستعطفه حتى يرجع إليه [2]:

أَلا مِنْ مُبْلِغٍ عَنِّي ذُرَيْحًا	فَإِنَّ اللهَ بَعْدَكَ قَدْ دَعَانِي
فَإِنْ تَسْأَلْ فَإِنِّي مُسْتَقِيدٌ	وَإِنَّ الخَيْلَ قَدْ عَرَفَتْ مَكَانِي

*ومنها مناشدة المرأة الرجل بالبقاء عندها، وهو يجيبها أنَّ الجهاد فرض واجب على القادر عليه، وأن المتخلف عنه لا عذر له عند ربه، وشاهد هذا ما أجاب به النابغة الجعدي معاتبا زوجته وقد آلمها فراقه، فيقول [3]:

---

[1] – أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج03، مصدر سبق ذكره ، ص 313- 314.

[2] – المصدر نفسه، ج02، ص 354.

[3] – أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ج01، تح : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1982، ص293.

بَاتَتْ تَذَكِّرُنِي بِاللهِ قَاعِدَةً	وَالدَّمْعُ يَنْهَلُّ مِنْ شَأْنَيْهِمَا سَبَلَا
يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللهِ أَخْرَجَنِي	كُرْهًا، وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللهَ مَا فَعَلَا
فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ النَّاسِ يُرْجِعُنِي	وَإِنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَدَلَا
مَا كُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعْذِرُنِي	أَوْ ضَارِعًا مِنْ ضَنًى لَمْ يَسْتَطِعْ حِوَلَا

*ومنها ما كان يوصي به بعض المجاهدين من خلفوهم وراءهم من أبنائهم وأهليهم، قبل المضي إلى ساحات القتال، وشاهد هذه الوصية قصيدة من غرر الشعر العربي لعبدة بن الطيب لابنه، تترقرق معانٍ إسلامية سامية، يقول فيها [1]:

ولقد عَلِمْتُ بِأَنَّ قَصْرِيَ حُفْرَةٌ	غَبْرَاءُ يَحْمِلُنِي إِلَيها شَرْجَعُ
فَبَكَى بَنَاتِي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَتِي	والأَقْرَبُونَ إِلَيَّ ثُمَّ تَصَدَّعُوا
وتُرِكْتُ فِي غَبْرَاءَ يُكْرَهُ وِرْدُها	تَسْفِي عَلَيَّ الرِّيحُ حِينَ أُوَدَّعُ
فإِذا مَضَيْتُ إِلى سَبِيلِي فَابْعَثُوا	رَجُلاً لَهُ قَلْبٌ حَدِيدٌ أَصْمَعُ
إِنَّ الحوادثَ يَخْتَرِمْنَ وإِنَّما	عُمْرُ الفَتَى فِي أَهلِهِ مُسْتَوْدَعُ
يَسْعَى ويَجْمَعُ جاهِداً مُسْتَهْتِراً	جِدًّا وَلَيْسَ بِآكِلٍ ما يَجْمَعُ

شعراء الفتوحات :

الرائي لشعراء الفتوحات الإسلامية يرى أنهم ليسوا على صعيد واحد، فمن شعراء الفتوح هناك القدامى، الذين هم معروفون بقول الشعر من قبل حتى أن يلتحقوا بساحات المعارك وميادين الجهاد، بل منهم شعراء فحول لا يخفون على دارسي الأدب لشهرتهم، من أمثال عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعبدة بن الطبيب، وأبي محجن الثقفي، وربيعة بن مقروم الضبي، وأبي ذؤيب الهذلي، وعمرو بن شأس الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي، وعروة بن زيد الخيل الطائي، والنابغة الجعدي، والشماخ بن ضرار، والحطيئة، « وليس شك في أن شعر هذه الطبقة من شعراء الفتح يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء، فهو شعر ناضج برغم الظروف التي شهدت مولده، وهو يمتاز عن بقية شعر الفتح بامتداد نفسه نسبيًّا، كما يظهر فيه بوضوح غلبة الفخر الفردي على الفخر بجماعة المسلمين، وكأن الشاعر الناضج يحس بنفسه إحساسا أقوى من إحساس غيره من الشعراء المغمورين، بل أقوى من إحساسه بالمثل الدينية في أكثر الأحيان » [2]، هذا وقد تباين شعر هاته الطائفة بين مقلٍّ وبين مكثر ومن لم يؤثر عنه شعرا وإن كان شارك في الفتوحات، وبين متأثر بتعاليم الإسلام وبين بعيد عن هذه التعاليم.

[1] – المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، المفضليات، تح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط06، 1979، ص148.

[2] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 163.

و منهم من أنطقتهم الفتوح، والملاحظ أن هذه الطائفة يكثر شعرهم، حتى إنه يخيل لنا أن الفاتحين كلهم كانوا شعراء، خاصة في الفتوحات الشرقية، ويرى النعمان عبد المتعال القاضي أنهم بدورهم ينقسمون إلى قسمين:

أولهما :طائفة من الشعراء المغمورين، الذين لم يشتهروا بشعر عند الناس قبل اشتراكهم في الفتوحات، وإن كانوا هم في الحقيقة شعراء ولكن غير معروفين، « وقد وجد هذا القبيل فرصته في الفتوح؛ إذ سارت بشعره الركبان، وسجل اسمه في ذاكرة العرب، وظهرت أسماء جديدة طالعتنا في كتب التاريخ والمغازي لا بريق لها ولا ألفة لدينا، كالأسود بن قطبة التميمي، والقعقاع بن عمرو، وأخيه عاصم، وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي، والأعور العبدي الشني، ونافع بن الأسود بن قطبة التميمي، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن مالك الزهري، وكثير بن الغريزة النهشلي» [1]

والقسم الثاني : وهم طائفة من الشعراء لم يكن لهم في الأصل ارتباط بالشعر في قليل أو كثير،« ولكنهم حملوا السلح وخاضوا المعارك، فإذا بنفوسهم تفيض بالبيت أو بالبيتين أو بالمقطوعة القصيرة تسرية وتنفيسًا وحثًّا لنفوسهم وتحميسًا .وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة وطليقة لتجاربهم وتأثرهم بمواقفهم النفسية الحافلة بالمشاعر والعواطف. ولذا يغلب عليه الرجز العفوي الحار، الذي يصدر عنهم وهم يستقبلون خصومهم، وكأنهم يدقون طبول الحرب مشجعين لأنفسهم، أو هم يتنادون، كل ينادي قبيلته أو جماعته » [2] ومن هؤلاء نجد الأسماء التي حفظتها لنا كتب التاريخ والأدب كأبي أحيحة القرشي، وبشر بن ذريح الثعلبي، وعصام بن المقشعر، وبشر بن ربيعة، والأشعث بن عبد الحجر بن سراقة، وجندب بن عمار، وعلياء بن جحش العجلي، والأعرف بن العلم العقيلي، وغيرهم كثيرون.

موضوعات شعر الفتوحات :

لقد تنوعت موضوعات شعر الفتوحات الإسلامية فأطلقت الألسن من عقالها، فقد فتحت الفتوح أمام الشعر أبوابا، كانت مفتوحة في الجاهلية فنفخوا فيها روحا جديدة، وأخرى جديدة – نسبيا — لم يعهده العرب قبل الفتوح، لأنها ولدت من رحم الدعوة الإسلامية، ولهذا يمكن أنَّ نرصد نوعين من موضوعات شعر الفتوحات؛ أحداهما موضوعات قديمة تقليدية كالحماسة والفخر والرثاء والمدح، لكنها اكتسبت صبغة جديدة عندما تعلقت بالفتح والجهاد، وأخرى مستحدثة لها علاقة مباشرة بالجهاد والمجاهدين :

1/ الموضوعات القديمة المتطورة :

وفي هذا النوع نجد أن الشعراء ما زالوا ينظمون أشعارهم وفق الأغراض المعروفة، المتداولة في مختلف العصور، لكن الملاحظ أنَّ هذه الأغراض قد أخذت منحى آخر ينطلق فيه أصحابها من معطيات جديدة، بحكم أنها جاءت تعبيرا عن شعور الفاتح المجاهد المغترب عن أهله ووطنه، ولعل أهم غرضين تفتقت بهما قرائح الفاتحين هما الفخر ومع الحماسة، والرثاء، وفيما يلي عرض مختصر لهما :

---

[1] – المرجع السابق، ص 175.

[2] – المرجع نفسه، ص 175– 176.

أ/ **الفخر والحماسة** :

لاشك أن الفخر والحماسة لا نستطيع أن نعدهما غرضين جديدين مستقلين، ولكن لهما جذورا ضاربة في الشعر الجاهلي، وغاية ما في الأمر أن الظروف الجديدة المتعلقة بالفتح والجهاد، هي التي كستهما ثوبا جديدا « ووضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التي ألفوها وألفها الشعر في الجاهلية، وإن اختلف الهدف بين المواقف اختلافًا شاسعًا، إلا أنها قد أزالت حرج الشعراء، وفتحت أمامهم أبوابًا كان طرقها محظورًا في ظلال الفكرة الإسلامية، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ما داموا جميعا يذودون عن العقيدة، ويبذلون الأرواح رخيصة في سبيلها، أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافًا عن حدود المهمة التي نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات التي كان يجب أن تختفي ويعفى على آثارها » [1] فأصبح غرض الفخر مفرغا من محتواه الجاهلي،يهدف إلى الإشادة بما كان من بسالة المجاهدين وصبرهم وقوتهم وتغلبهم على الأعداء، وتصوير لما كان يحدث في أثناء المعارك من إقدام أو إحجام، وكرٍّ وفرٍّ،وما تؤول إليه المعارك من نصر أو هزيمة، أو من استشهاد أو إعمال للقتل والطعن في نحور العدو، وذكر للرغبة في الثأر والانتقام، وهكذا .

*وهذا الموضوع هو أكثر موضوعات الشعر التي بين أيدينا ترددًا واتساعًا، ومن أمثلة هذا الشعر الذي يفخر ويشيد ببسالة المجاهدين، وقدرتهم على الإيقاع بالعدو قول خليد بن المنذر في يوم طاوس [2]:

بطاووس ناهبنا الملوك وخيلنا	عَشِيَّةَ شَهَرَاكَ، عَلَونَ الرَّوَاسِيَا
أَطَاحَتْ جُمُوعَ الفُرْسِ مِنَ رَأْسِ حَالِقٍ	تَرَاهُ لِبَوَّارِ السَّحَابِ مُنَاغِيَا
فَلَا يَبْعَدَنَّ اللهُ قَوْمًا تَتَابَعُوا،	فَقَدْ خَضَّبُوا يَومَ اللِّقَاءْ العَوَالِيَا

*وقد يعمد الشاعر إلى الإشادة ببلاء قائده، وحكمته في سياسة جنده وفتكه بأعدائه، كقول أحد المسلمين في المثنَّى؛ يوم سوق الأنبار[3]:

وَلِلْمُثَنَّى بِالعَالِ مَعْرَكَةٌ	شَاهَدَهَا مِنْ قَبِيلِهِ بَشَرُ
كَتِيبَةٌ أَفْزَعَتْ بِوَقْعَتِهَا	كِسْرَى وَكَادَ الإِيوَانُ يَنْفَطِرُ
وَشَجَّعَ المُسْلِمِينَ إِذْ حَذِرُوا	وَفِي ضُرُوبِ التَّجَارِبُ العِبَرُ
سَهَّلَ نَهْجَ السَّبِيلِ فَافْتَقَرُوا	آثَارَهُ وَالأُمُورُ تُقْتَفَرُ

[1] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 159.

[2] – أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، دار صادر، بيروت، لبنان، ط02، 1995، ص 08.

[3] – المصدر نفسه، ج04، ص 70-71.

*وقد يعمد الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وذكر ثباتهم؛ ليجعل ذلك سبيلاً إلى الفخر بنفسه وبكتيبته، مثل قول عاصم بن عمرو يوم المقْرِ [1]:

أَلَمْ تَرَنَا غَدَاةَ المَقْرِ فِئْنَا	بِأَنْهَارٍ وَسَاكِنِها جَهَارَا
قَتَلْنَاهُمْ بِهَا ثُمَّ انْكَفَأْنَا	إلى فَمِ الفُرَاتِ بِمَا اسْتَجَارَا
لَقِينَا مِنْ بَنِي الأَحْرَارِ فِيهَا	فَوَارِسَ مَا يُرِيدُونَ الفِرَارَا

إن الملاحظ في النماذج السابقة يرى أنها في مجموعها لاتكاد تخرج عن فني الفخر (الحماسة) ومعه ضمنًا المدح في ثوبهما الجاهلي، ولكن هذا الشعر برغم كونه فخرا أو مدحا إلا أنه يلبس لبوسا مغايرا يمتح من فكرة الجهاد وبذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله، بخلاف الفخر والمدح الجاهلي فإنه ينطلق من نوازع العصبية القبلية؛ التي تدعو للثأر والانتقام والفزعة سواء أكان أصحابها أهل حقٍ ام باطلٍ.

ب/ **الرثاء** :

ويظهر هذا الفن بوصفه غرضا مستقلا مقصودا لذاته، له علاقة مباشرة بالوضع الذي يعيشه الشاعر المجاهد من خلال فقده لأحبابه ورفاقه في ميادين القتال، ذاكرا ما عرفوا به من جلد وصبر وشكيمة، واستقبال للموت، ورغبة في الشهادة، فهو بهذا المعنى « تمجيد لبطولة الذين استشهدوا، وإشادة بفعالهم، ومواقفهم، والبكاء عليهم، وافتدائهم، وتعداد مآثرهم، وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلي فيما يشيع فيه من الحزن والأسى، وما يغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقيد، فإنه يختلف عنه فيما يمتلئ به من روح التسليم بالقضاء، والامتثال لإرادة الله وحسن تقبلها، وتمثل ما أعده الله للشهداء من جزاء عظيم » [2]، إذن فالخط الفاصل بين الرثاء الجاهلي؛ الذي فيه التسخط على أقدار الله، وعدم الصبر على ابتلائه، وبين الرثاء الإسلامي المؤمن صاحبه بأن الموت حق، وأن كل من على الأرض فهو إلى فناء، ولعل أول ما يطالعنا من نماذج رثائية للفاتحين، ما قاله أبو عامر بن غيلان في ولده، الذي خرج غازيًا وأدركه طاعون عمواس فمات فيه [3]:

عَيْنِي جُودِي دَمْعَكِ الهَتّضَانِ	سَحًّا وابْكِي فَارِسَ الفُرْسَانِ
يَا عَامِرُ مَنْ لِلْخَيْلِ لَمَّا أَحْجَمَتْ	عَنْ شِدَّةٍ مَرْهُوبَةٍ وَطِعَانِ
لَوْ أَسْتَطِيعُ جَعَلْتُ مِنِّي عَامِرًا	بَيْنَ اللَّهَاةِ وَبَيْنَ عَقْدِ لِسَانِي
ولَوْ أَسْتَطِيعُ جَعَلْتُ مِنِّي عَامِرًا	تَحْتَ الظُّلُوعِ وَكُلُّ حَيٍّ فَانِ

[1] – المصدر السابق، ج05، ص175.

[2] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص227– 228.

[3] – أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر)، تاريخ دمشق، ج26، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995، ص 87– 88.

يَا عَيْنِي فَابْكِي ذَا الحَزَامَةِ عَامِرًا	لِلْخَيلِ يَومَ تَوَاقُفٍ وَطِعَانِ

*وفضلا عن شعر التسليم لقضاء الله وقدره، نجد أيضا شعر الاعتزاز بمن ماتوا شهداء في سبيل الله، وذكر ما أعده الله لهم من النعيم المقيم، كما في قول من رثَى شهداء المسلمين الذين دفنوا في القادسية [1] :

جَزَى اللهُ أَقْوَامًا بِجَنْبِ مُشَرِّقٍ	غَدَاةَ دَعَا الرَّحْمَنَ مَنْ كَانَ دَاعِيَا
جِنَانًا مِنَ الفِرْدَوْسِ وَالمَنْزِلِ الذِي	بِخُلْدٍ بِهِمْ الخَيْرُ مَنْ كَانَ بَاقِيَا

ولعل رائعة كثير بن الغريزة النهشلي – الذي كان بجيش الأقرع بن حابس التميمي– ، والتي رثى بها شهداء جوزجان والطالقان، ورثى بها نفسه، تمثل قمة ما قيل في رثاء الشهداء.

*ويدخل في هذا غرض الرثاء، وصف المقاتل وما يتعرض له من جراحات، كأن تقطع يده أو أصبعه أو أنفه او رجله، فيخاطبها ذاكرا أنها قطعها إنما هو رخيص في سبيل الله، ولا يمكن أن يكون حائلا لإكمال الجهاد في سبيل الله فإما النصر وإما الشهادة، ومن ذلك أن عبد الله بن رواحة يوم مؤتة قطعت إصبعه، واستشهد أمامه صاحباه زيد بن الحارثة، وجعفر بن أبي طالب، فارتجز قائلاً [2]:

هَلْ أَنْتِ إلّا إصْبَعٌ دَمِيتْ	وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ
يَا نَفْسُ إلّا تُقْتَلِي تَمُوتِي	هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ	إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

*وفي هذا السياق ما يرثي به الفرسان والمجاهدون أنفسهم، بعدما جُرحوا جراحات بليغةً في أرض المعركة، وقد أحسوا بدنو أجلهم في بلاد غريبة بعيدا عن الأهل والأحباب، وشاهد هذا الرثاء قصيدة مالك بن الريب المشهورة الطويلة، التي قول فيها [3]:

أَلَمْ تَرَنِي بِعتُ الضّلالَةَ بالهُدَى	وَأَصْبَحْتُ فِي جيشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
لَعَمْرِي لَئِنْ غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِي	لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابَيْ خَرَاسَانَ نَائِيَا

[1] – أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، مصدر سبق ذكره، ص 133.

[2] – أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية، ج02، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط02، 1375هـ - 1955م، ص 379.

[3] – أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، جمهرة أشعار العرب، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981، ص 608- 610.

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ، فَلَمْ أَجِدْ	سِوَى السَيْفِ والرّمحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيذٍ يَجُرّ عِنَانَهُ	إلى المَاءِ، لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الدَّهْرُ سَاقِيَا
ولَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَةِ نِسْوَةٌ،	عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ، العَشِيَّةَ، مَا بِيَا
صَرِيعٌ على أيْدِي الرِّجَالِ بِقَفْرَةٍ	يُسَوُّوْنَ قَبْرِي، حَيْثُ حُمَّ قَضَائِيَا
وَلَمّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِي،	وَحَلَّ بِهَا جِسْمِي، وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
أَقُولُ لأَصْحَابِي ارْفَعُونِي لأَنَّنِي	يَقِرّ بِعَيْنِي أنْ سَهِيلٌ بَدَا لِيَا
فَيَا صَاحِبَيَّ رَحْلِي! دَنَا المَوْتُ، فَأَنْزِلَا	بِرَابِيَةٍ، إنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا
أَقِيمَا عَلَيَّ اليَوْمَ، أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ،	وَلَا تُعْجِلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا
وَقُومَا، إذَا مَا اسْتُلَّ رُوحِي، فَهَيِّئَا	لِيَ القَبْرَ والأَكْفَانَ، ثُمّ ابْكِيَا لِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي	وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا

*ولعلَّ من أطرف ما وصلنا في رثاء المجاهدين لأعضائهم، ما قاله عبد الله بن سبرة في فقده ليده بضربة من الأرطبون قائد الروم، لكن الفارس العربي تمكَّن منه فصرعه [1] :

يُمْنَى يَدَيَّ غَدَتْ مِنِّي مُفَارِقَةً	لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ فَلْطَاسَ لَهَا تَبَعَا
وَمَا ضَنَنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا	لَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أنْ نَسْتَرِيحَ مَعَا
وَقَائِلٍ غَابَ عَنْ شَأْنِي وَقَائِلَةٍ	هَلَّا اجْتَنَبْتَ عَدُوَّ اللَّه إذْ صُرِعَا
فَإنْ يَكُنْ أَرْطَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا	فَإنَّ فِيهَا بِحَمْدِ الله مُنْتَفَعَا

وخلاصة القول :إن شعر الفخر والرثاء قد اكتسبا عند الشعراء الفاتحين والمجاهدين معاني جديدة، فارقت ما كان معروفا عنهما في العصر الجاهلي، بحيث لم يعد الفخر تغنيا « بالشجاعة في الثأر والانتقام والإغارة، وإنما أصبح تفاخراً بالبطولة، والتفاني في الجهاد في سبيل الله، الذي يظهر فيه إيمان الشاعر بالعقيدة التي دفع عنها إيماناً عميقًا، يستشرف فيه الشاعر مغانم أخروية وعده الله بها، ويصدر فيه عن روح الجماعة الإسلامية، التي كادت تذوب داخلها القبليات والنعرات الجاهلية، كما يصدر فيه عن نفسه كعضو في هذه الجماعة واضح الشخصية متميزها، يؤدي واجبا يشعر بقداسته ويؤمن بدواعيه » [2]، و خرج الرثاء عن النمطية التي كان عليها، من خلال ما « شاع فيه من آثار التعاليم الدينية ومظاهر الإيمان بالموت والاستبشار بالجنة، فضلًا عن هذا اللون الجديد من الرثاء الذي بكى فيه

[1] – أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 47.

[2] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 234.

المسلمون أشلاءهم بكاء جديدًا، يظهرون فيه الاستهانة بما فقدوا في سبيل الله، ويلف الرثاء بلونيه التقليدي والمستحدث إطارٌ إسلاميٌ جليٌّ، وإشارات واضحة إلى الجنة والثواب والأجر الذي أعده الله للشهداء والمجاهدين » [1]

2/ الموضوعات المستحدثة :

أما فيما يخصُّ الموضوعات الجديدة، فتتمثل فيما له علاقة بالفتح مباشرة، من خلال الحياة التي يعيشها الفاتحون في بيئة أخرى جديدة عنهم، وبعيدة عن أوطانهم، وتختلف رأسا عمَّا ألفوه، ولعلَّ أول هذه الموضوعات ما يسمَّى بشعر الحنين، وفي هذه الأشعار يتشوق « الشعراء إلى مواطن صباهم، وملاعب طفولتهم، التي بعدوا عنها سائحين في بلاد الله النائية، فحركت لواعج البعاد فيهم أحاسيس الشوق، ومشاعر الحنين إلى تلك المواطن الغالية، فأرسلوا زفراتهم أشعارا مشحونة بالعواطف الرقيقة، والمشاعر الصادقة »[2]، وما يمكن أن نمثل به في هذا الصدد ما قاله أحد الفاتحين ، وقد هزه الحنين إلى دياره، شاكيا غربته [3]:

أُكَرِّرُ طَرْفِي نَحْوَ نَجْدٍ وَإِنَّنِي	بِرَغْمِي وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ
حَنِينًا إلى أَرْضٍ كَأَنّض تُرَابَهَا	إِذَا أَمْطَرَتْ عُودٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرُ
بِلادٌ كَأَنَّ الأُقْحُوَانَ بِرَوْضَةٍ	وَنُورُ الأَقَاحِي وَشْيُ بُرْدٍ مُحَبَّرُ
أَحِنُّ إلى أَرْضِ الحِجَازِ وَحَاجَتِي	خَيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ
وَمَا نَظَرِي مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ بِنَافِعٍ	أَجَلْ -لَا- وَلَكِنِّي إلى ذَاكَ أَنْظُرُ
أَفِي كُلِّ يَومٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ	لِعَيْنِكَ مَجْرَى مَائِهَا يَتَحَدَّرُ
مَتَى يَسْتَرِيحُ القَلْبُ إِمَّا مُجَاوِزٍ	بِحَرْبٍ وَإِمَّا نَازِحٍ يَتَذَكَّرُ

وكذا ما قاله مجاهد يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان فقال [4]:

أَقُمْرِيَّةَ الوَادِي التِي خَانَ إِلْفُهَا	مِنَ الدَّهْرِ أَحْدَاثٌ أَتَتْ وَخُطُوبُ
تَعَالِي أَطَارِحْكِ البُكَاءَ فَإِنَّنَا	كُلُّنَا بِمَرو الشَّاهِجَانَ غَرِيبُ

*ولعلَّ مما هو من باب الوصف التجديدي ذكر ما رآه الفاتحون في البلاد البعيدة، مما لا لم يألفوه في بلادهم، كالقصور العالية والقلاع الحصينة والكنائس المزركشة، والحيوانات المختلفة، ويحتلُّ الفيل صدارة وصف الشعراء،

[1] – المرجع السابق، ص 234.

[2] – سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سبق ذكره، ص 82.

[3] – أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، مرجع سبق ذكره، ص262.

[4] – المصدر نفسه، ج05، ص114.

خاصة وأنه يعدُّ من أسلحة الحرب التي استعان بها الفرس على المسلمين، وقد كان للقعقاع بن عمرو قصب السبق في مواجهة الفيل يوم القادسية فقطع مشفره وفقأ عينه، يقول في ذلك [1] :

فإنْ كُنتُ قَاتَلْتُ العَدُوَّ فَلَلْتُهُ	فَإِنِي لأَلْقَى فِي الحُرُوبِ الدَّوَاهِيَا
فُيُولًا أَرَاهَا كَالبُيُوتِ مُغِيرَةً	أَسْمُلُ أَعْيَانًا لَهَا وَمَآقِيَا

*وتظهر النفحات الإيمانية عند الفاتحين كوجه من أوجه التجديد، فلما كانوا يشدون على الأعداء في المعارك « لم يكن ذلك يلهيهم عن التوجه إلى الله، يستمدون من العون، أو ينسيهم أن يستنزلوا النصر منه تعالى، بل كانت ألسنتهم تلهج بذكره، وقلوبهم تعمر بالتوكل عليه واليقين بنصره » [2]، وقد تواترت الأشعار على لسان قواد الجيوش والجند في هذه المعاني الروحانية السامية، من ذلك ما قاله ضرار بن الأزور في فتح دمشق، وقد فدى خالدا بنفسه [3] :

عَلَيْكَ رَبِّي فِي الأُمُورِ المُتَّكَلْ	اغْفِرْ ذُنُوبِي أَنْ دَنَا مِنِّي الأَجَلْ
يَارَبِّ وَفِّقْنِي إِلَى خَيْرِ العَمَلْ	وَعَنِّي امْحُ سَيِّدِي كُلَّ الزَّلَلْ
أَقْمَعُ بِسَيْفِي الرُّومَ حَتَّى يَضْمَحِلْ	مَالِي سِوَاكَ فِي الأُمُورِ مِنْ أَمَلْ

*ومن صور التجديد في شعر شعراء الفتوحات الإسلامية مخاطبة الأبناء أمهم، ومن ذلك ما قال أبناء الشاعرة الخنساء الأربعة يوم القادسية، بعدما حضرت أمُّهم وحثَّتهم على الإقدام والتضحية في سبيل الله، في أبيات تجسِّد أروع معاني البطولة، وتصور روح الفداء، فلما أضاء لهم الصبح أخذوا مواقعهم، وأنشد أولهم قائلا مرتجزا :

« يَا إِخْوَتِي إِنَّ الْعَجُوزَ النَّاصِحَهْ	قَدْ نَصَحَتْنَا إِذْ دَعَتْنَا البَارِحَهْ
مَقَالَةَ ذَاتَ بَيَانٍ وَاضِحَهْ	فَبَاكِرُوا الْحَرْبَ الضَّرُوسَ الكَالِحَهْ
وَإِنَّمَا تَلْقَونَ عِنْدَ الصَّائِحَهْ	مِنْ آلِ سَاسَانَ كِلَاباً نَابِحَهْ
قَدْ أَيْقَنُوا مِنْكُمْ بِوَقْعِ الجَائِحَهْ	وَأَنْتُمْ بَيْنَ حَيَاةٍ صَالِحَهْ

أَو مِيتَةٍ تُورِثُ غُنْمًا رَابِحَهْ

[1] – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ج03، دار التراث، بيروت، لبنان، ط02، 1387هـ، ص 557.

[2] – سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سبق ذكره، ص 85.

[3] – أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 222.

وَتقدم فقاتل حَتَّى قتل رَحمَه الله ثمَّ حمل الثَّانِي وَهُوَ يَقُول :

إِنَّ الْعَجُوزَ ذَات حَزْمٍ وَجَلَد	وَالنَّظَرِ الأَوْفَقِ وَالرَّأْيِ السَّدَد
قَدْ أَمَرَتْنَا بِالسَّدَادِ وَالرَّشَد	نَصِيحَةً مِنْهَا وَبِرًا بِالْوَلَد
فَبَاكِرُوا الْحَرْبَ حُمَاةً فِي الْعَدَد	إِمَّا لِفَوْزٍ بَارِدٍ عَانِ الكَبِد
أَو مِيتَةً تُورِثُكُمْ غُنْمَ الْأَبَد	فِي جَنَّةِ الفِرْدَوسِ وَالعَيْشِ الرَّغَد

فقاتل إِلَى أَن اسْتشْهد رَحمَه الله ثمَّ حمل الثَّالِثُ وَهُوَ يَقُول :

وَاللهِ لَا نَعْصِي الْعَجُوزَ حَرْفَا	قَدْ أَمَرَتْنَا حَرْبًا وَعَطْفَا
نُصْحاً وَبِرًا صَادِقًا وَلُطْفَا	فَبَاكِرُوا الْحَرْبَ الضَّرُوسَ زَحْفَا
حَتَّى تَلُفُّوا آلَ سَاسَانَ لَفَّا	أَوْ تَكْشِفُوهُمْ عَنْ حِمَاكُمْ كَشْفَا
إِنَّا نَرَى التَّقْصِيرَ عَنْهُمْ ضَعْفَا	وَالْقَتْلَ فِيكُمْ نَجْدَةً وَعُرْفَا

فقاتل حَتَّى اسْتشْهد رَحمَه الله ثمَّ حمل الرَّابِعُ وَهُوَ يَقُول :

لَسْتُ لِخَنْسَاءَ وَلَا لِلأَحْزَمِ	وَلَا لِعَمْرُو ذِي السَّنَاءِ الأَقْدَمِ
إِنْ لَمْ أُرِدْ فِي الْجَيْشِ جَيشَ الْأَعْجَمِ	مَاضٍ عَلَى الهَوْلِ خَضَمَ خَضْرَمِ
إِمَّا لِفَوزٍ عَاجِلٍ وَمَغْنَمِ	أَوْ لِوفَاةٍ فِي السَّبِيلِ الأَكْرَمِ

فقاتل حَتَّى قتل رَحمَه الله فبلغها الْخَبَر فَقَالَت : الْحَمد لله الَّذِي شرفني بِقَتْلِهِم وَأَرْجُو من رَبِّي أَن يجمعني بهم فِي مُسْتَقر رَحمته »[1]

* أيضا ما يمكن الإشارة إليه شكوى الفاتحين من طبيعة البلدان التي جاؤوها، من حيث البرد القارص في بعضها، وكثرة حشراتها المؤذية، وفساد جوّها، بانتشار الأوبئة والأمراض، ومن هذا الأخير، يصّور لنا الشعر طاعون عمواس، وما خلفه في المسلمين، بحيث اجتمع عليهم الطعن والطاعون في وقت واحد، يقول المهاجر بن خالد بن الوليد وقد فقد أربعين من بني عمومته في هذا الطاعون [2]:

[1] – أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج04، تح : علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1992، ص 1828– 1829.

[2] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 1424هـ، ص 326.

أَفْنَى بَنِي رِيطَةَ فَرسَانَهَمْ	عِشْرُونَ لَمْ يُقَصَّصْ لَهُمْ شَارِبُ
وَمِنْ بَنِي أَعَمَامِهِمْ مِثْلَهُمْ	لِمِثْلِ هَذَا يَعْجَبُ العَاجِبُ
طَعْنٌ وَطَاعُونٌ مَنَايَاهُمْ	ذَلِكَ مَا خَطَّ لَنَا الكَاتِبُ

وفي ختام هذا التطواف بأهم الموضوعات التي طرقها الفاتحون في قصائدهم، لابد من التأكيد على أن الجهاد والفتح قد كان الباعث الأبرز في فتح أبواب من القول لم تكن لتظهر لولاه، كشعر الحنين ورثاء الاعضاء واحتسابه عند الله ووصف الطبيعة والحيوانات والأبنية وغيرها، مما يجعل شعر الفتوحات « نموذجا حيًّا لاستجلاء آثار الإسلام في الشعر العربي، حيث كان يعبر عن واقع حياة المسلمين آنذاك وعقيدتهم بكل تفاصيلها » [1]

خصائص شعر الفتوح:

1/ القصر والإيجاز :

يسود في شعر الفتوحات الإيجاز والاختصار، بحيث تندر فيه القصائد المسهبة والمطولة، فهو بهذا « شعر اللمحات السريعة، والمواقف الخاطفة، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في المعنى، أو تنقيح للفظ، أو التماس وزن أو قافية » [2]، وهو في الغالب يأتي على غرض واحدٍ.

2/ العفوية والبساطة :

ولعل هذه الخصيصة لها علاقة بما سبقتها، فما دام شعر الفتوحات يجري على سجية صاحبه، فهو وليد الحالة الشعورية التي يعيشها، فلا يخضع لتنقيح ولا لتمحيص ولا لإجالة فكر، ولهذا يأتي على شكل مقطعات سريعة يقولها الشاعر بكل عفوية وبساطة فلا تكلف ولا تمحل فيها، والسبب يرجع إلى – في الغالب – إلى « شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة، كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ، وتجويده وتحبيره » [3]، هذا من جهة ومن جهة ثانية أن الإسلام يدعو إلى البساطة والتلقائية والبعد عن التصنع والتكلف والتشدق والتقعير، ولكنه مع هذا فهو لا يخلو من صدق العاطفة وحرارتها.

3/ كثرة شعر الرجز :

وقولنا هذا لا يعني أن الرجز ظغى على الأوزان الأخرى، وإنما كان له حضورا واضحا بوصفه شكلا يختلف عن القوالب الشعرية الأخرى، من حيث اعتباره نوعا مستقلا من أنواع التعبير الأخرى، ومن حيث اقتصاره على موضوعات بعينها، « فضلًا عن تميزه بدور كبير في ظروف القتال، لم يتسن للشعر، في التحميس ورفع روح المحاربين، إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين، الذين أنطقتهم الفتوح، وهم كثرة

---

[1] – سامي المكي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سبق ذكره، ص 86- 87.

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط20، 2002، ص67.

[3] – الصفحة نفسها.

كثيرة، بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء، وإن كان لم يحتفظ بخصائص الشعر العربي التقليدية، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات » [1]

4/ التخفف من المقدمات الطللية والغزلية :

كما يلاحظ أن القصائد الفتحية قد خالفت القصيدة التقليدية المركبة من حيث هيكلتها وشكلها المعروف؛ حيث تبدأ بذكر الأطلال، ثم تنتقل إلى الغزل وذكر النساء، ووصف رحلته، وما يكون فيها، وما يتبع ذلك من الإحاطة بناقته – وسيلته في السفر – حتى يصل إلى الغرض المراد كالمديح وغيره، كما قرره ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فالكثير منها قد طرحت هذا النظام الصارم، الذي لا يسع أحد الخروج عليه، ولعل هذا الثورة – إن صح التعبير – تتلاءم مع الظروف المحيطة بالشاعر الفاتح / المحارب، الذي لا يسعه وهو في ما هو فيه من قتال وكرٍّ وفرٍّ ورباط أن يلتزم بقانونٍ متكلفٍ، لا يتوافق مع واقعه المعيش، بل ويخالف مشاعره التي يحياها بين الحياة والموت، فلم يكن له من داع كي يجعل بينه وبين ما يريد من معنى أو غرض هذه الحواجز المتوالية، وتلك المراحل المتدرجة، « ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة، تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع » [2]

5/ صدور الشعر عن روح إسلامية :

مما لا شك فيه أن شعر الفتح ما دام متعلقا بفكرة الجهاد فإنه « يكشف في جلاء عن أثر الإسلام كعقيدة، وكفكرة في نفسية العربي، وفي حمله على أن يبذل وأن يضحي في سبيلها بكل ما يملك، من روحه وجهاده ونضاله، كما يظهر في شعر الجهاد وأرجاز الفرسان، ويصور شعر الفتوح بالتالي مدى التغيير الهائل الذي أحدثته الفكرة الإسلامية في الارتقاء بالنوازع الوجدانية والقبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد » [3]، يقتسم فيه الفارس أو المجاهد آلامه وآماله مع رفقاء الدرب، في ظل الوجدان الجاعي ، والمصير المشترك، والغاية الواحدة، ولهذا ارتسمت في شعرهم لوحات إيمانية سامية ملؤها الإيمان العميق، والثقة بموعود الله، والاطمئنان إلى قضائه، واليقين بنصره، وهو زيادة على هذا يعدُّ شعرا ملتزما يرمي فيه صاحبه إلى حفظ تماسك الوحدة الإسلامية، والدفاع عن بيضة المسلمين وتبليغ الحق والهدى إلى الناس، فهو بهذا ليس كالشعر الجاهلي الذي يكون خدمة للقبيلة، وتحريك النعرات القومية، وإشعال نار صوت الفخر القبلي، أو مصدر لهو وتفكه وطرب.

---

[1] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 220.

[2] – المرجع نفسه، ص 222.

[3] – المرجع نفسه، ص 281.